الكتابات السياسية الكاملة

القائد المؤسس ميشيل عفلق

في سبيل البعث - الجزء الأول

الباب الاول - أفكار وتأملات

الأرض والسماء – 1944م

لا مفر من هذا التعبير "الأرض والسماء" حتى بعد أن أفرغ من محتواه الديني. وليس أقرب إلى الحقيقة من هذا التضاد بين عالمين: ما هو وقتي عارض فان، وما هو جوهري دائم. للعالم، للفنان، أرضه وسماؤه. الأرض هي مطالب الجسم ولذات الحياة اليومية ومشاغلها. والسماء هي مطالب العقل والروح، ولذات الحياة العليا وواجباتها. هذه السماء لا تبلغ إلا بتضحية الأرض، وخسارة الأرض على الأرض معناها عذاب الجحيم. وفي هذا الجحيم ومن خلال لهيبه ترمق العين وتستشف أفياء الخلود.

لو كان الإفراط في اللذة وطلب الرفاهية وحب متع الحياة هو الذي يبعد السماء عن الإنسان لهان الأمر، لأن المفرطين قليلون، وشروط الإفراط غير سهلة، ولكن البلية أن أكبر خطر يعرض سماء الإنسان إلى الضياع، وأكبر حائل يقف بينه وبينها هو مطالب حياته المعتدلة وسعادته المشروعة، وكل ما تنزع إليه الطبيعة السليمة ويأمر به العقل وتوافق عليه الأخلاق النصيب المشروع من الراحة والرفاهية والحرية والحب والصداقة. ذلك لأن السماء غير طبيعية ولا معقولة، ولأن لها أخلاقها الخاصة.

للحياة قوانين، بينها وبين القوانين الطبيعية هذا الفرق الجوهري قوانين الطبيعة تستكشف مرة واحدة، وقوانين الحياة يجب على كل فرد أن يستكشفها في حياته من جديد.

من هذه القوانين: أنه لا ربح بلا خسارة، ولا ربح إلا على قدر الخسارة، إلى حد أن الذي يقبل بأن يخسر كل شيء يستطيع وحده أن يأمل بالربح الأكبر.

أبعد الناس عن فهم الحياة، هم الذين يعتقدون بإمكان التوفيق بين النقيضين، باستطاعة المرء أن يربح من غير خسارة، أن يصعد إلى السماء وقدماه لاصقتان بالأرض. إذا صح ذلك فلأن هذه السماء التي يقصدونها حقيرة إلى حد أن المرء يتناولها وهو قاعد، كاذبة زائفة يربحها بخدع القمار.

وهناك وهمان يجب أن يبددا ، الأول أن نحسب السماء تبلغ بلا مشقة، والثاني حسبان المشقة وحدها موصلة إلى السماء، أو أنها هي السماء. الوهم الأول أشاعه غرور بعض الفنانين أو ذهولهم، فقد كتموا كل العذاب الذي قاسوه حتى امتلكوا قياد فنهم، أو أن عذوبة الفن لطفت من مرارة العمل الفني، وجمال القمة أنساهم وعورة الطريق الذي

سلكوه لبلوغها. صحيح أنه لا يبلغ السماء إلا من وهب جناحان وقدرت له مواهب أساسية، ولكن ما لا يقل عن ذلك صحة أن هذه المواهب لا تظهر إلا إذا أصغى المرء إلى ندائها، وصم أذنه عن جلبة العالم الخارجي ومغرياته وسهولاته، ووزن المسؤولية التي تفرضها وقبل بها، وجرد لها من قوة الإرادة ما تقتضي. الجناحان يطيران بك إذا رميت كثيراً من أحمالك حتى يستطيعا حملك، وإذا رضيت بكثير من الضغط أو المقاومة اللازمة لحملهما، المصير العظيم لا يعني أنك ستكون عظيماً إلا إذا تحملت عبء العظمة.

والوهم الثاني هو أن نحسب مجرد تحمل المشقة الكبيرة دليلاً على المصير الكبير، وفي هذا ما يضل عن الغاية ويغري باتخاذ الوسيلة بدلاً منها. فبعد أن كانت وعورة الطريق وسيلة لبلوغ القمة تصبح هي الشغل الشاغل، ويستحيل العمل رياضية وبهلوانية، كل النفوس التي تزهّد للزهد، وتخاطر حباً بالخطر، وتنزوي ارتياحاً الى الانزواء، هي نفوس بهلوانية لا مثالية. وكذلك الذين يحاكمون هذه المحاكمة: إذا كانت السماء وعرة الطريق، فكل طريق وعرة توصل إليها. تلك هي العقول القاصرة.

إن المشقة محتومة ولكنها ليست مرغوبة، ومن الواجب التغلب عليها حتى تخف وتختفي. عندئذ يصبح الذي يضحي بالأرض دون أن يشعر بألم التضحية عائشاً في السماء، أو أن الأرض لديه تستحيل سماء.

المصدر:

ميشيل عفلق، الكتابات السياسية الكاملة، في سبيل البعث، الجزء الأول، الباب الأول: أفكار وتأملات، مقال (الأرض والسماء)، 1944م